بأيّ ذنب قُتِلت !؟

عالم المخدرات عالم عجيب .. مليء بالأحداث والمواقف المؤثرة التي يعجز عن وصفها لسان أو قلم .

هذه صفحة من صفحات هذا العالم .. تحكي قصة معاناة عاشتها أسرة بريئة ابتليت بأبٍ ظالم .. قد شُغف قلبه بالمتاجرة في المخدرات ، وثقل سمعه عن آهات البنين والبنات .

في يومٍ من الأيام ، إبّان عملي في إحدى إدارات مكافحة المخدراتٍ ، كلفت بالقبض على أحد مروجي المخـــدرات الذين - مع كل أسف - تلاعبت بهم شياطين الإنس والجن ، واتخذت منهم معاول هدم في كيان هذا البلد الطاهر .

يمر شريط أحداث القضية بسرعة .. يتم اتخاذ الإجراءات التحضيرية للإطاحة بالهدف ، ومن ثم تحديد ساعة الصفر لتنفيذ المهمة .. وبتوفيق من الله تعالى يتم القبض على هذا الرجل متلبساً بترويج كمية من الحبوب المخدرة .

لم ينته مسلسل الأحداث .. بل بقي فيه لحظات لا تنسى .

لقد ثبت أن هذا الرجل يتخذ منزلـه موقعاً لإخفاء المخدرات التي يقوم بترويجها وتعاطيها .. كان هذا الموقف يستلزم ضرورةً ضبط هذه الكمية وفق الإجراءات الأمنية المتبعة حمايةً للمجتمع من خطر هذه السموم القاتلة .

تقوم الفرقة بالانتقال مع المتهم إلى منـزلـه .. بالوصول إلى المنزل يترجل الجميع وقوفاً أمام باب المنـزل وقد نصب الصمت أطنابه على أفواههم ، وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة .. يتقدم المتهم نحو منزلـه .. يطرق الباب ، فتنطلق على الفور نبراتٌ من الفـــرح والسرور تملأ أفواه مجموعة من البراعــم الأبرياء وراء الباب : هيــه .. جا بابا .. جا بابا ، بينما تداعب إحدى الصغيرات أباها بكل رقة وحنان : بابا لن أفتح لك الباب .. وتالله ما علمت المسكينة ما الذي يكمن وراء الباب .

أما المشهد في الخارج، فألم وحزن يخيم على وجوه الحاضرين .. يتبادلون نظرات الأسى .. بينما أرخى بعضهم لرؤوسهم العنـــــان وهم يهزونها يميناً وشمالاً حتى اتكأت على صدورهم من شدة الموقف .

لم تمض سوى لحظات حتى فتح الأطفال الباب ، وفي مخيلتهم ذلك الأب الحبيب الذي ربما يحمل في يديه لعبة ، أو حلوى .. أو على الأقل يحمل على وجهه ابتسامة مشرقة .. لكنهم يفاجئون به مجرمًا محاطاً برجال الأمن ، فتنقلب النبرات إلى آهات .. والأفراح إلى أتراح .. والآمال إلى آلام ، فلو رأيتهــم وهذا يحتضن رجل أبيه .. وهذه تتعلق بثيابه .. وأخرى في عمر الزهور تحدق بعينيها عاجزة عن تفسير الحدث .

أقول : لو رأيتهم لبكيت بكاءً جماً .. ولتفطر قلبك ألماً .

بعد هذا المشهد المؤلم يؤدي رجال الأمن واجبهم في مشهد آخر من مشاهد الألم والشقاء ، تمثّله صورة شاحبة لبيت البؤس الذي تستظل به هذه الأسرة .. تدخل غرفة الجلوس فلا ترى إلا أثاثاً متهالكاً ، وفرشاً مبعثرة .. أما غرفة الطعام فمسرح للقذى ومرتع للأوساخ .. وأما المؤنة وما أدراك ما المؤنة فما هي إلا بقايا من الحبوب والمعلبات المعدودة .. لا تكاد تسمن ولا تغني من جوع .

ضَنْك في المعيشة .. وشَظَف في الحياة .. ومع هذا .. فالأب غارق في غفلته .. متمادٍ في إهماله لأسرته .

وفي نهاية المشهد يتم العثور على كمية من المخدرات في المنزل .. ثم يغلق الستار بمغادرة المنزل وسط عاصفة مدوية من بكاء الأبرياء الذين وقفوا على باب المنزل ..يودّعون إنساناً كانوا يتربون في كنفه .. ويتراكضون إلى حضنه .. يقال له : (بـابا) .

في خضم ذلكم المشهد المؤلم عصفت بي مشاعرٌ من الأسى تجاه هذا المجرم : أما تخاف الله ؟ ألم تفكر في هذا المصير؟ أهكذا يرعى الأب فلذات كبده ؟ ما ذنب هؤلاء الأبرياء في هذه المأساة؟ وما جريرتهم في تحمل المعاناة ؟ .

تقدمت إليه وجهاً لوجه ، سألته لعلي أجد جواباً .. لكنه لم ينبس ببنت شفة عدا كلمتين .. قال : أنا السبب ، ثم انهمك في بكاءٍ حار .. وقد قلت على لسانه :

إليكم سـادة الـفـكـرِ
جـرت فيـهـا دمـوع
الـحـز بـقـلـبـي
لـوعـة الأسْـرِ
فيا حـزني عـلى
التـفـريـ فـكـم مـن
حـبـةٍ أضـحـت وكـم
سـيـجـارةٍ أذكـت
فـأكبـو حـيـن
أشـربـهـا وعـقـلـي
صـار بالـتـخـديـ
فـلا ألـوي عـلى أحـدٍ
تـُراع بُـنـيـّتـي الـعـبـرى
أبـي .. بـل لـست أنـت
أبـي أبـي قـد كـان
يـغـمـرنـي يـداعبـنـي
فـأسـعـد حـيـ وأنـت
الـيـوم تـغـتـال الـ
فـأضـحـت كـل آمـالـي
أقـاسـي الـجـوع و
الآلا لـهـيب الـيـتـم
يـحـرقـنـي أبـي
تـب قـبـل أن تـُنـعَـى
وتلـقـى بـعـدهـا أهـوا
إذا ما قـمـت لـلـرحـمـ
فـيا أبـتـاه هـل مـن
تـو تـهـاجر من بـقاع
الـخِـدْ

مـعـاناتـي مـع الـخِـدْرِ
ن بـيـن الـسـطـر
والسـطـرِ ومـوتٌ
يـقـتـفـي أثـري
ـط فـيـما ضاع مـن
عـمـري بـهـا
الأمـراض تـسـتـشـري
بـأحشائـي لـظـى
الـجـمـرِ وأشـعـر
أنـنـي أجـري
ـر بـيـن الـمـد والـجـزرِ
يـعـاتـبـنـي مـن
الـبـشـرِ فـتـقـضـي
الـلـيـل فـي ذعـرِ
فأنـت الـخِـبُّ ذو
الـغـدرِ بـفـيض
الـحـب والـطـهـرِ
ـن يـبـدو بـاسم
الـثـغـرِ ـفـضـيـلـة
فـي ربـى صـدري
سرابـاً فـي ثـرى
الـفـقـرِ م مـن
عـسـرٍ إلـى عـسـرِ
و حـيٌّ أنـت ، لا
تـدري وتـوْسـد
ظـلـمـة الـقـبـرِ
ل يـوم الـبـعـث
والـنـشـرِ ـن قـد
أُثـقـلـت بـالـوزرِ
بـةٍ تـنـهـي بـهـا
قـهـري ر
لـلـقـرآن والـذكـرِ
.

وفي نهاية المطـــــاف يجـــــرى التحقيق مع المتهم .. ويقدم للعدالة لينال جـزاءه الـرادع ، والـذي يمثل في حقيقته إصــلاحاً وعلاجــاً لنفسه المريضة .. وصــيانةً لأسـرته وللمجتمع بأكمله .. و حفاظـاً على قــيم هـذا البلد وأخلاقـه من أن تمسها أيدي السفهاء العـابثين .. حمى الله بلاد التوحيد من كل شيطان مريد .